

"على هامش السيرة" في ضوء الحقيقة والخيال

خليق الرحمن

باحث الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها،
جامعة كشمير، سرينغر

يعد طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣ م) من الأدباء القلائل الذين قدروا تقديرا كبيرا في العالم العربي بإنتاجاته الأدبية المتنوعة وعلاقته الوثيقة بالأدب العربي. لم تقتصر إسهاماته الأدبية على جانب واحد بل إنما ضرب في كل مجال بسهم وافر ومؤثر مقدا نماذج أدبية رائعة. وقد عني الكتاب والأدباء بإنتاجاته الأدبية عناية كبيرة بحثا ونقدا، غير أنهم لا يهتمون بإنتاجه في مجال السيرة النبوية، ولعل السبب يرجع إلى أنه لم يسهم في هذا المجال بسهم وافر بالنسبة لإنتاجاته الأدبية والثقافية في الأدب العربي. يجدر بنا أن نقوم في هذه المقالة بدراسة تحليلية لكتابه "على هامش السيرة" دراسة نموذجية من حيث المنهج والأسلوب كي يتضح لنا سماته الفنية ومعالمه الفكرية الذي جعله موضع نقد وثناء لدى الأدباء والنقاد من وجهة نظرهم الخاصة.

يشتمل هذا الكتاب على ثلاث مجلدات فالجزء الأول يتحدث عن المواد التالية وهي حفر زمزم، والتحكيم، والفداء، والإغراء، والبين، والقضاء، والرّدة، والطاغية، والبشير، وراهب الإسكندرية، واليتيم، والحاضنة، والمرضع، والبر^١. وأمّا الجزء الثاني فقد بدأه الدكتور طه حسين بعنوان الفيلسوف الحائر وختمه على عنوان نادي الشياطين^٢ بقول خالد بن سعيد الذي كان يقص على أخيه عمرو بن سعيد. فقال له: "لقد رأيت عجبا وأني لأرى هذا أمرا يكون في بني عبد المطلب إذ رأيت النور خرج من زمزم"^٣. والجزء الثالث من هذا الكتاب يحتوي عدة عناوين من موارد السيرة فمنها، صريع الحسد، وسيد الشهداء، وذو الجناحين، وحديث عداس، ومصعب بن عمير،

١. طه حسين: على هامش السيرة، ج ١، ص: ١٩٥ الطبعة الرابعة، سنة ١٩٨٤ م

٢. نفس المصدر، ج ٢، ص: ٢٢٦

٣. نفس المصدر، ج ٢، ص: ٢٣٣

وطريد اليأس، ونزير حمص، والوفاء، وطبيب النفوس، وشوق الحبيب إلى الحبيب، والقلب الرحيم، ويختتم هذا الجزء على "فإنك يا حنظلة قد أحببت ذكر إبراهيم في هذه القرية فوضعت الجزية عن أهلها"^١. وهذا من ناحية الفهرس، ولما عدنا إلى الجزء الأوّل نجد أنه تخيل فيه كيف كان الأشخاص وكانت الأحداث في قريش قبيل مولد الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام حتى ميلاده، وإرضاعه في ديار بني سعد، وأحداث عام ميلاده من هجوم جيش أبرهة على الكعبة، ثمّ محاولة فداء جده عبد المطلب بأبيه عبد الله أمام الإلهة، ثمّ زواج أبيه عبد الله بأمه أمنة بنت وهب، كل ذلك في صورة قصص متخيلة، وحوار متخيل في حين أن هذه الأحداث حقيقية التي سرد من خلالها طه حسين، سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم^٢. وأمّا في جزئه الثاني، من هذه السلسلة الجميلة، فيتصور طه حسين الأحداث التي دارت وحدثت حول الرسول صلى الله عليه وسلم قبل تبليغ الرسالة وقبل أن تلقى أمر النبوة، وقد تخيل الكاتب أيضًا كيف كانت قريش تعظم من قدر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيمته وشأنه وكيف تطلق عليه الصادق الأمين، وترتضي لحكمه، وكيف كانت السيدة خديجة بنت خويلد سيدة نساء مكة، الملقّبة بالطاهرة تهيم به وترضاه وتتمناه لها زوجها رغم فقره وكونه راعيا للغنم. وكيف كانت رحلته للشام، وكيف علم الأخبار والنصارى بأخبار التي ذكرت بكتهم دون أن يروها فكيف كانوا ينتظرون قدومه، قدم المؤلف كل هذا في سرد بديع جميل ممتع^٣.

وفي الجزء الثالث يأتي الحديث عن عمرو بن هشام الذي سمي "بأبي الحكم" أو "بأبي الجهل" وسيرته وكيدته وتدبيره السوء للرسول صلى الله عليه وسلم، وعن تبشير ورقة بن نوفل للسيدة خديجة بأن تأويل ما حدث مع زوجها من بدء نزول جبريل عليه

١. طه حسين: على هامش السيرة، ج ٣، ص: ٢٤٣.

٢. شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر في مصر، ص: ٢٨٠.

٣. سامح كريم: ماذا يبقى من طه حسين، ص: ١٣٣.

السلام بالوحي بآية (إقراء باسم... الخ) أنه هو خاتم الأنبياء والرسل روي المؤلف وكذلك قصة إسلام الصحابي الشهير "مصعب بن عمير" وما حدث معه في حمل راية المسلمين في واقعة أحد وقصة بعض الصحابة الكرام مثل خادم الرسول زيد بن حارثة وغيره^١. وجدير بالملاحظة أنه كتب هذا الكتاب متأثراً بقصص تمثيلية قرأها منذ أعوام فصار نهجه من إحياء الأدب القديم ومن إحياء ذكر العرب الأولين^٢. على نحو ما نعرف من قوله حيث صرح "أن قراءة الأدب القديم عسيرة وفهمه أعسر وتذوقه أشد إعساراً". وفي رأيه أيضاً "إنما الأدب الخصب حقا هو الذي يلذّك حين تقرأه لأنه يقدم إليك ما يرضي عقلك وشعورك وإذا أنت تعيده على الناس فتلقيه إليهم في شكل جديد يلائم حياتهم التي يحبونها وذلك هو الأدب القادر على البقاء"^٣. فمعناه أن الدكتور طه حسين يلتفت بشدة من خلال كتابته "على هامش السيرة" بإخراج الأدب القديم إلى إحيائه وإحياء ذكر العرب الأولين في الأدب الحديث والشيء الذي لاحظنا هنا هو أن تجاوز المؤلف الحدود في بعض بيان القصص ورواية الأخبار واختراع الحديث حيث يتبين أنه جرى على طريقة الحرية والسعة في رواية الأخبار ولكن على طريقة الاحتياط في أخبار النبي صلى الله عليه وسلم به فهو يشير إلى ذلك قائلاً: "إني وسعت على نفسي في القصص ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجد به بأساً إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبي"^٤. فلا نبالغ إذا نقول إن طه حسين ولج في هذا الميدان متأثراً بأدباء الغرب وأقاصيصهم التمثيلية وجعل اسمه يتردد على أيدي الكتاب والنقاد، وسلك مسلك الأجانب أخذاً البراهين العقلية في بيان قلب النبي صلى الله عليه وسلم مفصلاً قصة حب زينب زوج زيد

١. سامح كريم: ماذا يبقى من طه حسين، ص: ١٦٥

٢. أنور الجندي: المعارك الأدبية، ص: ١٤

٣. طه حسين: على هامش السيرة، ج ١/ ص: ١٤٥

٤. نفس المصدر، ص: ١/ ص: ١٥٧

وانصراف زيد عن زوجته زينب، ومثل هذه الأقوال صدرت من قبل بعض المنافقين والأجانب ولكن إذا بلغت رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم أنه قال عن زيد: "إنه دخل الجنة" فقد سعى وسعد المنبر وقال: اللهم اغفر لزيد، اللهم اغفر لزيد اللهم اغفر لزيد فقد استغفر لزيد ثلاث مرات. فبمثل هذه النصوص التي أوردها الدكتور طه حسين لتوليد معنى التدوق بكتابة السيرة يتولد الشك في نفس القارئ حول زواج النبي صلى الله عليه وسلم مع زينب بعد مفارقتها عن عقد زيد بن حارثة (نعوذ بالله من ذلك كله). وهنا نعتقد على طه حسين لأنه كان ينبغي له أن يوضح وفور الحب الذي كان بين النبي وبين زيد بن حارثة توضيحا إيجابيا فإنه بنفسه يعتقد بأن كما قال في كتابه ج ٣/ ص: ٢٢٥ "حب هذا الفتى وقع في قلب النبي الأمين وملاً حب الأمين قلب الفتى"^١. فإننا لا نرى شيئاً يدل على عقيدة طه حسين ووجهة نظره فالأخبار التي يتحدث عنها الدكتور طه حسين لا نجدتها في كتب تاريخ الإسلام ولا حتى في الأساطير والأقوال المأثورة بالرغم من ذلك نعرف جميعاً أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا بغضّ الأبصار وحفظ الفروج، فكيف يمكن أنه صلى الله عليه وسلم يفعل ما نهى المسلمين عنه وكيف يمكن أنه صلى الله عليه وسلم يحب امرأة أجنبية وهي زوجة رجل آخر، كما يشير إليه الدكتور طه حسين في "على هامش السيرة". وهذا من أعظم المهتان الذي بهت طه حسين على شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم^٢.

إنّ طه حسين عنى عناية كبيرة بالأساطير وأثر الأساطير الموضوعية على الأحاديث الصحيحة، حتى يأخذ بالأحاديث الموضوعية ثم يضطر برد الأحاديث الصحيحة لأنها تخالف الآراء التي يتحدث عنها هو وكذلك يعتمد كثيراً على الإسرائيليات التي أوردها ابن إسحاق عن أهل الكتاب وعمّا قبل النبوة ولكن ما كان يعتمد بهذه الأحاديث. وكذلك صرح طه حسين في كتابه على لسان عبد المطلب إذ

١. طه حسين: على هامش السيرة، ج ٣/ ص: ٢٢٥

٢. غازي التوبة: نقد على هامش السيرة، ص: ٢٣٣

قص حكاية حفر زمزم والرؤيا التي كانت تتكرر على عبد المطلب فمرة يطلب منه حفر طيبة ومرة برة ومرة المذنونة وأخيرا يأتيه ليقول له أحفر زمزم^١. وذكر المؤلف بعد ذلك ما لاقاه عبد المطلب من نكران قريش عليه في أمر الطائف الذي يأتيه في المنام ليحفر بئرًا في فناء المسجد وغيره من الأحداث. فهذه العبارة المذكورة يتجلى لنا أن حفر زمزم جرى على يد عبد المطلب حيث يقص الكاتب له أساطير كثيرة غير أن الأمر عكس على ذلك لأننا نجد معظم الأحاديث الصريحة التي تشهر بأن حفر زمزم كانت تجري خارق العادة على يد إسماعيل عليه السلام بل إننا نجد الآيات القرآنية على شهادة وتقوية لها. على هذا النحو أن طه حسين وقدماءه تزلزلوا في هذا المقام أيضًا ومالوا إلى الأساطير والخرافات تاركين وراءه دلائل نقلية وعقلية ومع أننا ما رأينا من النقاد المعاصرين متفقين على هذا الرأي بل أن معظمهم نقدوا على طه حسين نقدا لاذعا ولاغرو في ذلك^٢. وكذلك بالغ المؤلف في قصة ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يثبت فيها إلا حديثا واحدا على نحو من العبارة الآتية التي يتضح فيها لنا كيف بالغ طه حسين في قصة ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم "وهي يقظة غير نائمة، أن نورا ينبعث منها فيسيل الأرض من حولها ويزيل الحجب عن عيناها، وكانت تنظر فتري قصور بصرية في أطراف الشام، وكانت تنظر فتري أعناق الإبل تردي في أقصى الصحراء"^٣. وقال أيضًا: "وكانت هذه الأخرى من صاحباتها تنظر فإذا نجوم السماء تدنوا من الأرض وتمد إليها أشعة قوية نقية باهرة ساحرة، وإنها لتدنو وتدنو حتى يخيل إلى الرائية أنها توشك أن تمسها وتقع عليها"^٤. هكذا تتجلى في هذه العبارة أن طه حسين قد بالغ في قصة ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم فأثبت أن أمانة رأت

١. طه حسين: على هامش السيرة، ج ١، ص: ٣

٢. غازي التوبة: نقد على هامش السيرة، ص: ٢٥٤

٣. طه حسين: على هامش السيرة، ج ١، ص: ١٥٢

٤. نفس المصدر

النور ينبعث في حالة اليقظة ولكن الحقيقة هي أنها رأت النور في المنام كما نرى في كتب الأحاديث^١. وكذلك عجز عن ذكر رواية صحيحة عن مرضعة الرسول صلى الله عليه وسلم حليلة السعدية وعن لمحات وفاء الرسول صلى الله عليه وسلم بمرضعته حليلة السعدية وحاضنته أم أيمن رضي الله عنها وسلوكه مع أقرانه وهو صغير^٢. فمن هذا القبيل يمكن لنا أن نقول إن هذه السيرة صنيعة عالية في نطاق الأدب الحديث وكتاب غير مصون من حيث تعقيدات الفكر الإسلامي فإذا اتصل سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بحياة ملايين المسلمين جميعا وأن فكرة طه حسين متولدة من أفكار الأوربيين^٣. فضلا عن ذلك نجد طه حسين يتوغل في الحديث عن أهل نجران وفي أمر اليهود والتحدث عن اليهود وصراعها والحوار بين الحاكم الروماني وصديقه كاليكراتيس واندروكليس والنصرانية وآلهة اليونان والرومان القدماء فالقارئ المثقف بأداب السيرة يضطر على أن الدكتور طه حسين لم يُرد بحريته إلى إباحيتها لنفسه إلا لهوى معين وهدف واضح فهو الذي يعتذر التناقض في بعض أحداث السيرة مع العقل وعدم استقامتها مع التفكير العلمي ولكنه يبدو موقفه بأن هذه الأساطير ترضى ميل الناس إلى السذاجة^٤. فهو يقول طه حسين دفاعا عن هذا: "وأنا أعلم إن قوما سيضيعون بهذا الكتاب لأنهم محدثون يكبرون العقل ولا يثقون إلا به ولا يطمئنون إلا إليه وهم لذلك يضيعون بكثير من الأخبار والأحاديث التي لا يسيغها العقل ولا يرضاها^٥. ولكننا نلاحظ بعد مطالعة هذا الكتاب أن فيه انحرافا واضحا من الأحاديث فلا أصل للأحاديث التي يتذكرها طه حسين ولو كانت صحيحة

١. محمّد مهدي الإسطنبولي: طه حسين في ميزان العلماء والأدباء، ص: ٢٣٣

٢. طه حسين: على هامش السيرة، ص: ج ١/ ص: ١٥٤

٣. غازي النوية: نقد على هامش السيرة، ص: ٢٢٠

٤. غازي النوية: نقد على هامش السيرة، ص: ٢١٨

٥. طه حسين: على هامش السيرة، ص: ج ١/ ص: ١١٥

قوية بالدلائل والبراهين إذا هي تخالف العقل ولا يدخل في أعماق نفس الإنسان. ففكر طه حسين كمثل هذه الحوادث التي لا تطبق بأي وجه من وجوه العقل ولا في فكرة الإسلام والعقائد المثبتة بالقرآن والأحاديث فهذا الصدد يجدر بنا أن نقول إن فكره في هذا الكتاب فكرة المستشرقين لا المسلمين الصادقين. على هذا النحو أن أفكار الإسلام وعقائده في هذا الكتاب كمثل كتابه الشهير الذي ضجّ لأجله نزاعات وخلافات بين الكتاب والنقاد وهو كتاب "في الشعر الجاهلي" كما صرّح زكي مبارك قائلاً: "أنا أوصي قرائي أن يقرأ هذا الكتاب برؤية فان فيه نواحي مستورة من حرية العقل"^١. وكذلك انتقد بعض النقاد على طه حسين في مجلة الشباب الجزائرية حيث كتب تحت عنوان "دسائس طه حسين"! فقال ألف طه حسين كتاباً سماه "على هامش السيرة" يعني السيرة النبوية الطاهرة فملاؤه من الأساطير الوثنية وكتب ما كتب في السيرة على منوالها فأظهرها بمظهر الخرافات الباطلة وأساطير الخيال حتى يخيل للقارئ أن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ما هي إلا أسطورة من الأساطير^٢. وقد يقول الدكتور محمّد حسين هيكل عن هذا الكتاب "إن طه حسين اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم مادة أدب الأسطورة وسلك مسلك كتاب الغرب ممن يتحدثون عن الأساطير القديمة فينشرونها ويزينونها وطه حسين قصد إلى إحياء أدب الأساطير، وإقامة أساطير ميثولوجية إسلامية لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم في شأن الإسلام ونبيه. ومن أجل ذلك نرى ارتفعت صيحة المسلمين في مختلف العصور لتطهير العقائد من هذه الأوهام^٣. فالتبعية واضحة في كتابات طه حسين الإسلامية للمناهج الغربية التي تودي إخراج المسلمين من الإصالة والاستسلام الواضح للفكر الوثني بصفة عامة والفكر اليهودي بإسرائيلياته بصفة

١. زكي مبارك: زكريات باريس، ص: ١٤٥

٢. سيد حسين العفاني: أعلام واقزام في ميزان الإسلام، ج ١، ص: ٦٥

٣. محمّد حسين هيكل: مجلة دسائس طه حسين، ص: ١١٥

خاصة بل يكاد يكون الدكتور طه حسين من خلال مختلف كتبه الإسلامية محييا لمفهوم الإسرائيليات ووجهة نظر اليهود بحيث اختار السيرة النبوية كوسيلة لإحياء التراث الأدبي القديم فنسج كثيرا من موضوعاته على خيوط الدارمي الطبيعي وأطلق فيه خياله العنان وحرر نفسه في اختراع القصص لأن هدفه أن يتخذ سيرة النبي مادة للأدب الأسطوري^١. فإذا نؤمن بأنه لم يقصد بها التأليف المهم إلى أي إضافة تاريخية فيمكن لنا أن يضع هذا الكتاب في نطاق الكتابة التاريخية كما اعترف طه حسين نفسه بذلك إذ قال: "هذه صحف لم تكتب للعلماء ولا للمؤرخين لأنني أراد بها إلى العلم ولم اقصدها إلى التاريخ، وإنما هي صور عرضت لي أثناء قراءتي للسيرة فأثبتها مسرعا ثم لم أر في نشرها بأسا ولعلي رأيت في نشرها شيئا من الخير، فهي ترد على الناس أطرافا من الأدب القديم قد أفلتت منهم وامتنعت عليهم فليس يقرأها منه إلا أولئك الذين أتاحت لهم ثقافة واسعة عميقة في الأدب العربي القديم"^٢. فهذا الفكر الذي غلب على هذا الكتاب بصورة تامة. ومع كل ذلك نعتزف بأن طه حسين انحرف وانعزل عن آراءه والأفكار الإسلامية والعقائد المثبة كما انحرف عن أفكار كتاب السير السابقين ولكننا إذا تحدثنا عن ناحية أسلوبه فنجد عذبا سلسا جديرا لبيان القصص والروايات والسيرة النبوية أيضا فهو أسلوب مملوء بقوة العاطفة وتنميق الألفاظ، والإطناب والتطويل. كما امتاز بكل ذلك هذا الكتاب الذي نتحدث عنه والذي استخدم فيه المؤلف أساليب متنوعة، فتارة نجده يستخدم السجع وتارة نراه يستخدم الترسل متخففا من أثقال الصنعة والصبغ البديعي وتارة نلاحظ الاقتباس من الآيات القرآنية، وأحيانا نجد في أسلوبه جلجلة العبارة أيضا. فبالرغم من الانتقادات اللاذعة امتاز هذا الكتاب بما فيه من عبارات رائعة وأسلوب جذاب ممتع.

١. غازي التوبة: نقد على هامش السيرة، ص: ١٥٧

٢. طه حسين: على هامش السيرة، مقدمة الكتاب، ص: ١

المصادر والمراجع

- ١- د. طه حسين: على هامش السيرة، الجزء الأول، الناشر دار المعارف، كورنيش النيل الطبعة التاسعة عشر ١٩٩٢م، القاهرة.
- ٢- د. طه حسين: على هامش السيرة الجزء الثاني، دار المعارف، الطبعة التاسعة عشرة ١٩٩٢م، القاهرة.
- ٣- د. طه حسين: على هامش السيرة، الجزء الثالث، دار المعارف، الطبعة الثالثة
- ٤- ابن القيم: محمد بن أبي بكر، زاد المعاد في هدي خير العباد، المطبعة المصرية ومكتبتها.
- ٥- ابن منظور: لسان العرب، دار إحياء التراث، بيروت ١٩٩٢م.
- ٦- ابن هشام: السيرة النبوية، المقدمة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٩٣٦م.
- ٧- أبو الحسن علي الندوي: السيرة النبوية، دار ابن كثير دمشق، ط، الثانية ١٤٢٥هـ.
- ٨- أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي: كتاب المغازي.
- ٩- أحمد اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٩٩م.
- ١٠- أحمد أنور: سيد أحمد الجندي، المعارك الأدبية، مكتبة الإنجلو المصرية ١٩٨٣م.
- ١١- أحمد أنور: سيد أحمد الجندي، النثر العربي تطوره وأعلامه، القاهرة ١٩٧٧م.
- ١٢- أحمد أنور: سيد أحمد الجندي، طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٩٦٥م.
- ١٣- أحمد بن يحيى بن جابر داود البلاذري: فتوح البلدان، مؤسسة المعارف بيروت ٢٠١٠م.

١٤- حمدي سكوت: أعلام الأدب العربي المعاصر في مصر، دار الكتاب العربي

١٩٨٣م. والعشرون ١٩٩٣م، القاهرة.

١٥- د. محمد حسين هيكل: حياة محمد، دار المعارف، الطبعة الرابعة عشر

١٩٧٧م، القاهرة.

* * *